أصول المناهج الإسلامية في البحث العلمي

د . خالد امحمد فرج الوحيشي ــ قسم الفلسفة كلية الآداب ــ جامعة الزاوية

تمهيد :

ساهمت الحضارة الإسلامية بفضل جهود علمائها في رقي الحضارة الإنسانية وتقدمها وازدهارها حتى وصلت إلى ما وصلت إليه الآن من تقدم ورقي ، فالمسلمون كانوا اصحاب حضارة زاهية راقية يوم كانت أوربا في عصورها الوسطى تعيش في ظلام حالك ، وانتقلت الحضارة الإسلامية عبر كثير من المعابر إلى أوربا فبنت عليها نهضتها الحضارية الحديثة واستفادت منها وترجمت أمهات الكتب الإسلامية إلى اللغة اللاتينية، تلك التي أضاءت الطريق أمام البشرية حتى يومنا هذا .

أن الباحث في التراث العربي الإسلامي لا يكل ولا يمل ، فكلما غاص الباحث في أعماق هذا التراث كلما استبان فضل السبق للعلماء المسلمين في اكتشاف كثير من النظريات والحقائق العلمية والمناهج التي يدعي الغرب اكتشافها .

وأحياء هذا التراث الإسلامي وإعادة بعثه ، ليس من باب التباهي والتفاخر بأمجاد خالدة تليده ، وإنما بقصد أذكاء الروح القومي الإسلامي وبث روح الثقة في النفس والاعتزاز بماضينا المشرف ، وإذا كان أجدادنا من العرب والمسلمين قد تركوا لنا تراثا خالداً طاف العالم ، فأحرى بنا نحن أبناء هذه الأمة أن نعيد هذه الأمجاد وتلك المفاخر وأن نعمل ونكد ونجتهد ونكافح في سبيل رقي مجتمعاتنا .

لهذا سنتناول في هذا البحث**أصول** المناهج الإسلامية في البحث العلمي، وكيف ظهرت البواكير الأولى لهذه المناهج في مجالات علوم الحديث وعلوم الفقه وغيرها من العلوم التي مارسها المسلمين ؟ وما هي المرجعية والأصول المختلفة التي أعتمد عليها المسلمون في دراستهم ؟

هذه التساؤلات سيتم الإجابة عليها في هذا البحث من خلال:

1_التعريف بالمنهج والعلم .

2_المفهوم الإسلامي للعلم .

3_أنواع المناهج التي استخدمها المسلمين .

أولاً: التعريف بالمنهج والعلم .

1ـ لفظ المنهج لغة واصطلاحاً :

ـالمنهج في اللغة العربية من الفعل نهج، المنهج بوزن الفلس، والمنهاج بوزن المذهب، والمنهاج الطريق الواضح، ونهج الطريق أبانه وأوضحه ونهجه أيضا سلكه [1] .

والمنهج الطريق الواضح وأصله نهج[2].

ويقال نهج الطريق :سلكه ونهجت الطريق أبنته وأوضحته، واستنهج طريق فلان : إذا سلك مسلك[3] .

فخلاصة معانيه في اللغة : أنه الطريق الواضح والمستقيم سواء كان حسياً، أو معنوياً .

المنهج في الاصطلاح :

يعرف المنهج في الفلسفة بأنه: ((وسيلة محددة توصل إلى غاية معينة))[4] ، هذا بوجه عام، وفي الجانب المعرفي والفكري يعرف بأنه ((خطّة منظمة لعدّة عمليات ذهنية أو حسية بغية الوصول إلى كشف حقيقة أو البرهنة عليها))[5] ، وقيل إنه خطوات منظمة يتخذها الباحث لمعالجة مسألة أو أكثر ويتتبعها للوصول إلى نتيجة[6] .

نفهم من هذا أن المنهج هو الطريق الواضح المنظم في التفكير أو الاستدلال أو العمل الموصل إلى غاية معينة، وهو يختلف باختلاف العلوم والمبادئ والغايات .

المنهج في الاستعمال القرآني:

لقد وردت الإشارة إلى المنهج في القرآن الكريم في موضع واحد عند حديث القرآن عن الكتب السابقة وموقف القرآن منها، وموقف الرسول صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب حيث يقول تعالي: (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّـهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّـهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّـهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)[7].

يقول ابن عباس رضي الله عنه شرعة ومنهاجاً أي سبيلاً وسنة، فالمنهاج هو السبيل أي الطريق الواضح، والشرعة والشريعة بمعنى واحد، وشرع سن[8] .

المنهج في السنة :

جاء بمعني الشيء الواضح الذي ينبغي السير عليه يقول صلى الله عليه وسلم: ((تكون النبوة فيكم ما

شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة))[9] .

أي يسلك الخلفاء مسالك النبي، وينهجون نهجه، ويسيرون على طريقته .

وفي حديث العباس رضي الله عنه:((أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما مات حتى ترك السبيل نهجاً واضحاً))[10].

قال ابن الأثير أي واضحة بينة، وقد نهج الأمر وأنهج إذا وضح، والنهج الطريق المستقيم[11] .

نخلص مما سبق إلى أن المنهج هو الطريق الذي يسلكه الإنسان للوصول إلى الحقيقة، أو إلى الطريق المستقيم .

ثانياً ـ لفظ العلم لغة واصطلاحاً

1ـ العلم في اللغة :

قال ابن فارس العين واللام والميم أصل صحيح يدل على أثر بالشيء يتميز به عن غيره، ومن ذلك العلامة وهي معروفة، يقال علمت علماً الشيء علامة، والعلم الراية، والجمع أعلام، والعلم نقيض الجهل، ويطلق ويراد به المعرفة، وسمي علماً، لأنه علامة يهتدي بها العالم إلى ما قد جهله الناس فهو كالعلم المنصوب بالطريق[12] .

2ــ العلم في الاصطلاح :

قال الراغب الأصفهاني في تعريف العلم في القرآن هو: ((إدراك الشيء بحقيقته، وذلك ضربان أحدهما إدراك ذات الشيء، والثاني الحكم على الشيء بوجود شيء هو موجود له، أو نفي شيء هو منفي عنه))[13].

وقال ابن عبد البر: ((إن العلم هو ما استيقنته وتبينته، وكلّ من استيقن شيئاً وتبينه فقد علم))[14] .

وقال الجرجاني : العلم هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، وقال الحكماء هو حصول صورة الشيء في العقل[15] .

3ـــ العلم في الاصطلاح القرآني :

إن المتتبع لمفهوم العلم في القرآن الكريم يجد أنه ليس قاصراً على العلم الديني أو الأخروي، أو عالم الغيب ، فقد استعمل القرآن العلم بمعناه المطلق الذي يشمل كلّ علم قال جلّ جلاله: (وَاللَّـهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)[16] .

لا تعلمون شيئاً هنا في بداية خروج الإنسان إلى الوجود، وكذلك في أواخر حياته إذا بلغ عتيا أو أرذل العمر، وكلمة علم هنا نكرة تفيد العموم المستغرق لعلم كلّ شيء .

واستعمل العلم بظاهر الحياة الدنيا بكل جوانبها الطبيعية والإنسانية أي العالم كله قال تعالى: (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ)[17]، فهذا العلم الدنيوي مقابل العلم الأخروي، واستعمل العلم في علم الحساب والفلك (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّـهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)[18]، ومن منزلة العلم في القرآن أن الإنسان يتوصل به إلى أن يكون من الشهداء على الحقّ، والدليل قوله تعالى: (شَهِدَ اللَّـهُ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[19] .

وفي جانب آخر نجد أن الله يرفع أهل العلم في الآخرة وفي الدنيا، أما في الآخره فإن الله يرفعهم درجات بحسب ما قاموا به من الدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ والعمل بما علموا، وفي الدنيا يرفعهم الله بين عباده بحسب ما قاموا به قال الله تعالى: (يَرْفَعِ اللَّـهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّـهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)[20] .

هذه بعض الآيات التي تدلّ على حثِّ القرآن على العلم، وعلى منزلة العلماء، وغيرها الكثير من الآيات التي تتناول مفهوم العلم .

العلم في السنة النبوية :

أما إذا انتقلنا إلى السنة النبوية فنجد أن الرسول صلي الله عليه وسلم، تحدث عن العلم وعن منزلة العلماء في أكثر من موضع، قال صلى الله عليه وسلم: ((من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين وإنما أنا قاسم والله يعطي ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله))[21] .

وقال عليه الصلاة والسلام: ((لا حسد إلا في اثنين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها))[22] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله قال: ((إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له))[23] .

وقال عليه السلام: ((من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً، سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وأن الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم، وأن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد،كفضل القمر على سائر الكواكب وأن العلماء ورثة الأنبياء، وأن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظّ وافر))[24] .

و المتتبع لأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام يلاحظ مدى المنزلة التي أعطاها الرسول صلى الله عليه وسلم للعلم، والمكانة التي يصل إليها العلماء، وهنالك الكثير من الأحاديث خلاف ما ذُكِرَ التي تدلّ على اهتمام الرسول عليه السلام بالعلم والعلماء مما قد لا يتسع المقام لذكرها .

ثانياً ـ المفهوم الإسلامي للعلم :

1 - مفهوم العلم عند المتكلمين :

أ ــ الاشاعرة ومفهوم العلم :

لقد تناول الأشاعرة مفهوم العلم، فنجد أن الأمام الأشعري، وهو من أبرز علماء الكلام يوضح أن العلم صفة لله سبحانه في ذاته، وأنه عالم في نفسه غير أنه لا يوصف بأنه عالم حتى يكون الشيء، فإذا كان قيل عالم به، وما لم يكن الشيء لم يوصف بأنه عالم به، لان الشيء ليس وليس يصح العلم بما ليس[25].

فيوضح الأشعري لم يزل الله عالماً، والعلم صفة له في ذاته ولا يوصف بأنه عالم بالشيء حتى يكون[26] .

يتضح لنا أن مفهوم العلم عند الأشعري إنما ينصرف إلى صفة العلم الألهي كما يتناولها بعض علماء الكلام، وأن التناول يتمحور حول هذه المعاني والدلالات الكلامية، مبتعداً عن مفهوم العلم بوصفه وسيلةً يتوصل بها المرء للوصول إلى يقين، فالممارسة والسياق الذي يتناول فيه الأشعري مفردة العلم إنما تدور في فلك إثبات صفة العلم لله وإثبات وجوده من خلال إقامة مقارنات تبسيطية بأعمال الإنسان .

ب ـ المعتزلة ومفهوم العلم :

أما إذا انتقلنا إلى المعتزلة نجد مثلاً أن القاضي عبد الجبار يرى أن العلم إنما يحتاج إليه لاجتلاب المنافع ودفع المضارّ، ولولا ذلك لكان طلب العلم جهلاً والرغبة في المعرفة عناء[27] .

ويوضح أن العلم يتعلق بالمعلوم على ما هو به، فلا يصير المعلوم على ما هو به بالعلم وإنما يصير العلم علماً لأجل تعلقه بالمعلوم على ما هو به وكذلك القول في الدلالة والخبر الصادق، ولولا أن الأمر كما قلنا لكان يلزم أن يكون المعلوم على ما هو عليه يحصل كذلك والعلم يحصل علماً لكون المعلوم على صفة مخصوصة، فيؤدي إلى تعلق كل واحد من الأمرين بصاحبه، وكذلك الحال في الدلالة والخبر الصادق[28] .

ونجد العديد من الأفكار التي يذكرها القاضي عبد الجبار حول مفهوم العلم يبرز فيها التناول الاعتزالي للمسألة، من ذلك ما تدلّ عليه هذه الشروحات أعلم أن كلَّ علم يتعلق بظن، ومن فقد الظن فقد بفقده العلم لتعلق بعض ذلك ببعض[29]، هنا نلاحظ أن القاضي عبد الجبار يوضح وبشكل مباشر أن وظيفة العلم هي وضع ضوابط للظن للوصول إلى معرفة أعمق وأعقل، وهذه هي المهمة التي انبرى للقيام بها علماء الكلام للدفاع عن العقيدة .

إذاً ما يؤسس له القاضي من حدود وضوابط ومعايير للعلم إنما هي بنيه يقيم عليها دفاعه عن العقيدة، وهذا دون شك منطلق مختلف عما وجدنا عند الأشعري، فالأشعري يتناول مفهوم صفة العلم عند الله أما ما يسعى إليه القاضي فهو إقامة إطار، و تأسيس علمي لعلم الكلام فهو يؤطر ويؤسس لمفهوم العلم فهو يهدف إلى توظيفه فيما بعد بوصفه وسيلةً أو آلة لمعالجة القضايا التي تناولها في مصنفه الكلامي .

ثالثاً: أنواع المناهج التي استخدمها المسلمين :

من المتعارف علية أن أي علم من العلوم يتطلب استخدام منهج محدد تفرضه طبيعة ذلك العلم ولهذا فالمسلمون أنتجوا مناهج كانت وليدة البيئة الإسلامية، وكانت هذه المناهج أصيلة البيئة الإسلامية وما تناوله المسلمون من مواضيع وعلوم تخصّ العقيدة الإسلامية، وبالتالي نتجت نتيجة للخوض في العقيدة الإسلامية مجموعة مناهج استخدمها المسلمون؛ لتوضيح أرائهم وأهدافهم، وهذه المناهج لها قواعدها، ولها أسانيدها، وفضلاً عن مبادئها في البحث عن المعرفة، ولعل من أهمّ هذه المناهج .

1- مناهج علوم القرآن

قبل أن نتناول مناهج علوم القرآن، لابدَّ من معرفة معنى علوم القرآن، ما المقصود بعلوم القرآن ؟

من المعروف أنه قد نشأت مجموعة من العلوم تتصل بالقرآن الكريم، وهي: (مباحث تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله، وترتيبه، وجمعه، وكتابة قرآنه، وتفسير إعجازه، وناسخه ومنسوخة، ودفع الشبه عنه)[30] ، وكلُّ هذه العلوم مصدرها القرآن الكريم الذي حظي بعناية خاصّة عند المسلمين وهذا ما أكَّده السيوطي بقوله: ((اعتنى قوم بضبط لغاته، وتحرير كلماته، ومعرفة مخارج حروفه، وعدد كلماته المتشابهة وآياته المتماثلة فاعتني النحاة بالمعرب منه والمبني من الأسماء والأفعال، واعتني المفسرون بألفاظه والأصوليون بما فيه من الأدلة العقلية، والشواهد الأصلية والنظرية مثل قوله: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّـهُ لَفَسَدَتَا)، فاستنبطوا منه أدلة على وحدانية الله ووجوده،...، وقدرته، وعلمه، وتنزيهه عما يليق به))[31] .

وما يهمنا من ذلك هو علم تفسير القرآن، ومناهج المسلمين في التفسير حيث تعددت طرائقهم نتيجة لاختلاف ثقافاتهم وعصورهم، والمقام هنا لا يتسع للحديث عن تاريخ التفسير وأشهر رجاله ومصنفاتهم، وشروط المفسر والعلوم التي ينبغي دراستها .

ولعل من المناهج التي استخدمها المسلمون في فهم وتفسير معاني وآيات القرآن الكريم، ما يعرف بمنهج فهم الكل من خلال الجزء، والجزء من خلال الكل، وهو المنهج الذي عرف عند المفسرين في تفسير القرآن من خلال مقارنة وتفسير آية بآية أخرى فتزداد وضوحاً في دلالتها أي أن يفسر القرآن بالقرآن وهو أحسن طرق التفسير عندهم حيث قالوا: ((إن أحسن الطرق في التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن))[32] ، فمنهج فهم الكل من خلال الجزء أي فهم القرآن من خلال آية أو

سورة والاستشهاد بموقف معين للتدليل على أن القرآن يؤيد ذلك الموقف، وهو في الحقيقة تفسير لتدعيم المواقف، ولعل هذا النوع من التفسير قد نشأ كما يري الدكتور (ياسين عريبي) على يد المعتزلة حيث يقول: ((إن هذا النوع من التفسير قد نشأ وتحدد على يد المعتزلة الذين يؤسسون نظرياتهم ،...،من خلال آيات قرآنية محددة))[33] ، كتفسيرهم لقوله تعالي: (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)[34]، أي طريقي الخير والشر ، حيث أتجه كلّ نابغة في فنّ أو داعية لمذهب، أو فكرة للاجتهاد في تفسير الآيات بما يوافق فنه، ويلائم مشربه، ويناصر مذهبه، ولو كان بعيداً كل البعد عن المقصد الذي نزل من أجله القرآن فهذا النوع من التفسير هدفه تأييد المذهب، أو تغليب مذهب أو فرقة على أخرى، وفيه تظهر الخلفية الثقافية، أو ثقافة المفسر والتي يقصد بها أثر الثقافة والموقف الفكري للمفسَّر على تفسيره، وهو ما يعرف عند علماء التفسير ((بالتفسير بالرأي ولم يؤلفها أصحابها إلا لتأييد أهوائهم والانتصار لمذاويقيهم ومواجديهم ومن ذلك تفاسير المعتزلة...))[35] .

لو نظرنا إلى هذا التفسير أي التفسير بالرأى لوجدنا أنه تفسير مذموم؛ لأنه يحمل آيات القرآن في بعض الأحيان أكثر مما تحتمل، لغرض تأييد موقف أو لتبرير مصلحة، وذلك يصرف الآيات القرآنية عما أنزلت من أجله أمَّا منهج فهم الجزء من خلال الكل فقد نشأ على يد المحاسبي، كما يذكر ذلك ياسين عريبي فهو الذي:((أسس نظرية في العقل والفهم من خلال النظر في القرآن ككل))[36] ، حيث كان منهج المحاسبي في كتابة **ماهية العقل** استعراض الآيات القرآنية التي ورد فيها ذكر العقل، ومن خلال معنى العقل في تلك الآيات استنتج أن العقل غريزة، وأسس بذلك الاستنتاج نظريته عن العقل الذي هو عنده: ((غريزة أودعها الله في أكثر خلقه لم يطلع عليها العباد بعضهم من بعض ولا أطلعوا عليها من أنفسهم برويه، ولا بحسّ، ولا ذوق، ولا طعم وإنما عرفهم الله إياها...))[37] .

أمّا منهج فهم الكل من خلال الجزء والجزء من خلال الكل في عملية واحدة فيرجع تأسيسه إلى محاولة الغزالي تفسير القرآن الكريم من خلال تفسير الآيات في ضوء السور، والسور في ضوء الآيات، وهو المنهج الذي أتبعه الغزالي في كتابه (**جواهر القرآن**) وذلك كتفسيره لآية الكرسي وسورة الفاتحة والإخلاص حيث يقول في تفسير الفاتحة: ((إذا تفكرت وجدت الفاتحة على إيجازها مشتملة على 8 مناهج، وأنه لا مكرر في القرآن فإن رأيت شيئاً مكرراً من حيث الظاهر، فانظر في سوابقه ولواحقه ينكشف لك مزيدَ الفائدة في إعادته))[38] ،كما تعرض لتفسير آية الكرسي واعتبرها متضمنة لشرح الفاتحة وهنا يتضح لنا منهج الفهم الدائري عندما نفهم معنى آية من خلال سورة والسورة في ضوء تفسير آية واحدة كذلك من خلال النظر في القرآن على أنه لا مكرر فيه، وإنما تشابه الآيات لحكمة، تتكشف فائدة التكرار من خلال النظر في سياق الآيات سوابقها ولواحقها .

كما نجد أن الغزالي قسَّم آيات القرآن إلى قسمين: جواهر، ودرر .

القسم الأول : سماه الجواهر وفيه أحصَى 763 آية ليدلل أن هذه الآيات تدور حول معنى واحد هو المعرفة بالله، وهو قسم علمي .

القسم الثاني : أسماه الدرر، وأحصى فيه 741 آيةً؛ ليؤكد أن هذه الآيات تدور حول معنى الاستقامة على سواء الطريق، ولا تكون الاستقامة إلا بالعمل،حيث يشترك العلم والعمل؛ ليكونا أصل الإيمان العلم والإيمان[39] .

هذه بعض إشارات عن علوم القرآن توضح المناهج التي اتبعها المفسرون، وهي مناهج أصيلة نشأت من طبيعة المادة موضع البحث ونقصد بها القرآن الكريم، فجاءت أو ظهرت كوكبة من التفاسير كلّ تفسير هو ابن منهج خاصّ به تولدّ نتيجة ظروف وأسباب ترتبط بمؤلفه .

2- منهج علوم الحديث

نشأت طائفة من العلوم التي تعتني بالنظر في صحة الأحاديث، وذلك من خلال النظر في الروايات، من حيث مطابقتها لأقوال الرسول صلى الله عليه وسلم وأفعاله، وكذلك اهتمت بالنظر في أحوال الرواة، وعلومهم وعصورهم، ورحلاتهم، وغاية هذه العلوم التأكد من صحة الروايات وصدق الرواة ونتيجة لذلك ظهر علمانِ، رئيسان يتفرعان إلى فروع كثيرة .

أولاً : علم الحديث رواية: ((ويقوم على النقل الدقيق لكلَّ ما أضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل، أو تقرير، أو صفة، ولكلّ ما أضيف من ذلك إلى الصحابة والتابعين))[40].

ثانياً : علم الحديث دراية: ((وهو مجموعة من المباحث والمسائل، يعرف بها حال الراوي، والمروي من حيث القبول والرد))[41] .

وأهم فروع هذين العلمين

علم الجرح والتعديل: علم يبحث عن الرواة من حيث ما ورد في شأنهم مما يشينهم، أو يزكيهم بألفاظ مخصوصة[42]

علم الرجال: ويبحث في رواة الحديث، تاريخهم وكلّ ما يتعلق بشؤونهم، ونشأتهم، وشيوخهم وتلاميذهم[43].

علم الناسخ والمنسوخ: ويبحث في الأحاديث المتعارضة التي لا يمكن التوفيق بينها، فيحكم على المتقدم بأنه منسوخ، والمتأخر بأنه ناسخ[44] .

فعلوم الحديث اهتمت بالدرجة الأولى بالمطابقة بين أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم وأفعاله وبين روايات الرواة من الصحابة والتابعين، وقد حُدِدَ لهذه المطابقة ثلاثة مناهج هي

1ـــ **الاستقراء، والفهم والمعايشة**: فمنهج الاستقراء مثلا يتمُّ من خلال تتبع الروايات للوصول إلى الرواية المأخوذة عن الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث طبق علماء الحديث منهج الاستقراء التام من خلال تتبع وفحص كل حديث روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم عن طريق العنعنة بتتبع الرواية من راوي الحديث إلى آخر حتى تصل هذه الرواية إلى الراوي الذي أخذ الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة[45]، وقد طبق هذا المنهج عند جمع الحديث حيث أخذ الصحابة في جمعه بمنهج العنعنة أي أنهم كانوا يسألون الراوي عمن أخذت الحديث ؟ فيقول عن فلان عن فلان... إلى آخر الرواية حتى يصل إلى الراوي الذي سمع من النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة .

2ـــ **منهج المقارنة والحذف**: التي تتجلي في منهجهم لمعرفة صدق الراوي وضبطه لحديثه بحيث: ((يعرف كون الراوي ضابطاً بأن تعتبر روايته بروايات الثقات المعروفين بالضبط والإتقان، فإن وجدنا روايته موافقة، ولو من حيث المعنى لرواياتهم، عرفنا حينئذ كونه ضابطاً، وإن وجدناه كثيرا المخالفة لهم عرفنا اختلال ضبطه، ولم يحتج بحديثه...))[46]، فبمقارنة الرواية موضوع النظر بغيرها من الروايات الموثوقة يمكن التعرف على مدي صحتها، وهذا هو منهج المقارنة، أما منهج الحذف والإسقاط يتمثل في حذف الرواية التي تثبت مخالفتها للروايات الموثوقة أي حذف الحديث الذي لم تثبت صحته .

3ـ **منهج الجرح والتعديل**: وضع أئمة الحديث منهجاً، لمعرفة درجات الرواة، وتعرف صحة أحاديثهم وتشدد أئمة الحديث في تجريح الرواة وتعديلهم، ذلك؛ لأن ما يروى ليس من باب الأخبار والأقوال التي يتناقلها الناس، بل المروي مصدر من مصادر التشريع؛ لذلك حرصوا على صِحَّة نسبته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوضعوا مصطلحات يوصف بها الرواة وحددوا لهم مراتب ودرجات حيث اشترطوا في الراوي الذي تقبل روايته أن يكون: ((عدلاً ضابطاً لما يرويه وتفصيله أن يكون مسلماً بالغاً عاقلاً سالماً من أسباب الفسق، متيقظاً غير مغفل، حافظاً إن حدث من حفظه، ضابطا لكتابه إن حدث من كاتبه، وإن كان يحدث بالمعنى اشترط فيه أن يكون عالماً بما يحيل المعاني))[47]، فالجرح أو تجريح الراوي يختلف باختلاف الناس حيث يطلق بعضهم الجرح على أمور لا يعتبرها آخرون كذلك، وعليه اشترطوا التعليل في الجرح، وهو ما بين دقّة مقاييسهم ومناهجهم في معرفة الرواة وتحديد درجاتهم، ومعرفة ما يقبل أو يرفض، أما التعديل فيقبل من غير تعليل وذلك لكثرة أسبابه،كما حددوا ألفاظاً يوصف بها

الرواة تجريحاً وتعديلاً أو تزكية فألفاظهم في التعديل هي : فلان قد روي الناس عنه، فلان ما أعلم به بأساً، ويقال للراوي ثقة، أو متقن، أو ثبت، أو حجة، أو حافظ أو ضابط، صدوق أو محله الصدق ويقال شيخ، ويقال صالح الحديث، أما ألفاظهم في التجريح فهي فلان لاشيء، فلان ليس بذاك القوى، فلان فيه أو في حديثه ضعف ويقال ليَن الحديث، ويقال متروك الحديث، أو ذاهب الحديث، أو كذاب[48]، وبهذا لم يغفل أئمة الحديث عن وضع مصطلحات دقيقة تميز راوٍ عن آخر، ونتج عن هذا التشدد في تجريح الرواة وتعديلهم ما يعرف: ((بسلسلة الذهب أو أصح الأسانيد، التي توافر فيها ما لم يتوافر في سواها من العدالة، والضبط، وسائر الصفات التي توجب الترجيح))[49]

بناء على ما تقدم فإن جهود المسلمين في وضع مناهج وطرق للحكم على الخبر المروي تعد غاية في الدقة والموضوعية، ووسيلة لتزكية الخبر المروي وما كانوا ليصلوا إلى هذه الدرجة من التزكية والقبول للأحاديث لولا وضع مقاييس صارمة للحكم على الراوي، والمروي، والتخلص من الأهواء والنزعات الشخصية للكشف عن الأخبار، والأحاديث الموضوعة، فخصُّوا الراوي والمروي بمناهج وطرائق؛ لتعرف صحَّة الأخبار، ومعرفة صدق رواتها، وذلك إيماناً منهم وتقديراً لحرمة الحديث النبوي باعتباره مصدراً من مصادر التشريع عند المسلمين فعملوا على تحري الصدق والأمانة، ولذلك لم يتساهلوا في وضع قواعد ومناهج هذا العلم الجليل والتي لم تكن مسبوقة حيث لم يحظَ بها علم من العلوم، ولا عرفها شعب من الشعوب قبل المسلمين الذين مارسوا عن طريقها المنهج التاريخي وتحليل النصوص،والآثار، وقد أثمرت هذه المناهج عن إنتاج كُتب سميت بالصحاح وسلاسل الذهب في علم الرجال حيث يروي الخبر متواتراً راوٍ عن راوٍ إلى أن تصل الرواية إلى الراوي الذي أخذ عن النبي عليه السلام .

ثالثاً- المنهج الأصولي

يُعُّد المنهج الأصولي أحد مناهج البحث عند المسلمين، وهو منهج يتفق مع الحاجة الإنسانية العلمية، بمعني أنه منهج علمي غايته استنباط الأحكام الفقهية من النصوص الشرعية، وقد عرف القياس الأصولي بأنه:((إلحاق واقعة لا نصّ على حكمها بواقعة أخرى ورد نصّ بحكمها لتساوي الواقعتين في علّة الحكم))[50]، أي هو قياس من حالة جزئية على حالة جزئية أخري تشبهها بوجه من الوجوه، وانتقال من جزئي إلى جزئي آخر وهو ما يشبه قياس الغائب على الشاهد ومعناه: ((أن يوجد حكم في جزئي معين واحد فينتقل حكمه على جزئي آخر يشابهه بوجه ما))[51].

وقد نشأت أوليات هذا المنهج لدي فقهاء الصحابة الذين تصدوا للإفتاء والقضاء بين الناس بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم حيث كانت الأحكام في زمن النبي صلى الله عليه وسلم تؤُخذ عنه بما يوحى إليه من القرآن، وما يبينه بسنته الشريفة ولما لحق صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى، قام كبار الصحابة من بعده بحمل مهمة الإفتاء والقضاء بين الناس، وما كانوا؛ ليقولوا في فتواهم من غير قيد ولا ضابط، نتيجةً لذلك اضطروا إلى الاجتهاد والقياس كلما عرضت لهم حادثة أو حالة مجهولة الحكم وأرادوا معرفة حكمها فإنهم يبحثون عن حالة تشبهها؛ لينقلوا حكمها إلى الحالة الجديدة فكان الصحابة رضوان الله عليهم: ((يقيسون الأشباه بالأشباه منها، ويناظرون الأمثال بالأمثال فإن كثيراً من الواقعات من بعده صلوات الله وسلامه عليه لم تندرج في النصوص الثابتة، فقاسوها بما ثبت، وألحقوها بما نصّ عليه بشروط في ذلك الإلحاق، وتصحيح تلك المساواة بين الشبيهين أو المثلين حتى يغلب على الظن أن حكم الله تعالى فيهما واحد، وصار ذلك دليلاً شرعياً بإجماعهم عليه، وهو القياس))[52]، أي أن الصحابة مارسوا الاستدلال بالكتاب والسنة في منهج محدد حيث قاسوا الحالات التي لم ترد بشأنها أحكام في الكتاب والسنة بحالات تشبهها من الكتاب والسنة، وألحقوها بحكمها وبعبارة أخرى إنهم كانوا كلما ظهرت حادثة جديدة وأرادوا معرفة حكمها فإنهم يلجؤون إلى كتاب الله، فإن لم يجدوا فيه مبتغاهم فإنهم يلجؤون إلى السنة فإن لم يجدوا فيها الحكم فإنهم يجتهدون ويقيسون الحالة الجديدة بما يشبهها من النصوص الشرعية .

ويمكن القول إن البواكير الأولى لنشأة المنهج الأصولي، الذي تطور ونضج فيما بعد حيث بلغ مرحلة وضع القواعد والأسس، ثم نُظُم الاستدلال التي تمت على يد الشافعي، وهو يعد بحق واضع حجر الأساس لعلم أصول الفقه، وينطوي المنهج الأصولي على مجموعة من العمليات الفكرية التي يمارسها المجتهد للوصول إلى الحكم، وفي ذلك يقول الشافعي: ((كلّ ما نزل بمسلم ففيه حكم لازم، وعلى سبيل الحقّ فيه دلالة موجودة، وعليه إذا كان فيه بعينه حكم وجب اتباعه، وإذا لم يكن فيه بعينه (أي حكم لازم) طلب الدلالة على سبيل الحقّ فيه بالاجتهاد والاجتهاد القياس))[53] .

هنا نلاحظ أن الشافعي يجعل من القياس والاجتهاد شيئاً واحداً، لقد نشأ هذا المنهج وتطور في دوائر الأصوليين، وظهرت بواكيره الأولى في زمن متقدم من حياة المجتمع الإسلامي، وقد نشأ هذا المنهج نتيجة للحاجة لمعرفة أحكام بعض الواقعات والحوادث التي لم تظهر في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وبالتالي لم يرد بشأنها أو بحكمها نصّ شرعي، فأضطر المسلمون إلى الاجتهاد وقياس الحالات، أو الوقائع الجديدة على ما يشبهها من الواقعات الواردة بأحكامها نصوص

من الكتاب والسنة، أو إجماع المسلمين، وبذلك نشأ هذا المنهج بمعزل عن أي مؤثرات أجنبية خارجية حيث ولد في بيئة إسلامية خالصة، وأثبت نجاحه في الوصول إلى أحكام الوقائع المراد التعرف على أحكامها، فالمنهج الأصولي أخذ يتطور بمرور الزمن حيث بلغ مرحلة التنظيم ووضع الضوابط على يد الإمام الشافعي الذي رسم حدود هذا المنهج وتطوير علم أصول الفقه بشكل عام .

وبذلك تتجلّى مقدرة المسلمين على إبداع مناهج علمية وصياغتها صياغة دقيقة للبحث كما تجلّت في وضعهم لأسس المنهج النقلي، والمنهج التاريخي من خلال وضعهم لقواعد منهج علوم الحديث الذي يعد منهجاً شاملاً لكونه يبحث في حال الراوي والمروي السند والمتن، من حيث تاريخ حياة الراوي وعصره وعمره، وزمن أخذ الرواية، ونوعية الرواية هل هي كتابة أو مشافهة، وذلك إنما يدلّ على دقّة المسلمين في وضع المناهج ودقّة مناهجهم كما وضعوا سُنن وقواعد منهج الفهم والتحليل، وطبقوه في علومهم من خلال علوم القرآن في فهم النصوص وتفسيرها؛ وكذلك في معرفة الراوي في الحديث وفهمه .

الخاتمة :

إن المتتبع لكلّ ما أوردناه يجد وبصورة جلية لا تدع مجالاً للشك أن هذه المناهج التي استخدمها المسلمون هي مناهج إسلامية خالصة، وهذه المناهج هي وليدة البيئة الإسلامية الصرفة والمرجعية العلمية التي اعتمد عليها المسلمون في دراساتهم وأبحاثهم واستقوا منها كلّ علومهم هي القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة فهما المصدران الأساسيان اللذان اعتمد عليهما المسلمون ومن خلالهما قدموا للبشرية مناهج وعلوم ساهمتْ في نهضة البشرية ورقيها.

الهوامش

1: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، (ب.ت)، مختار الصحاح، القاهرة: دار المعارف، ص 681 .
2: ابن منظور، (ب.ت)، لسان العرب،ج2، القاهرة: دار المعارف، ص 383 .
3:انظر ابن منظور، لسان العرب، ص 383 .
4:جميل صليبا، (1399ه)، المعجم الفلسفي، بيروت: عالم الكتب، ص195 .
5: المرجع نفسه، ص195 .
6: يوسف خياط، (ب.ت)، معجم المصطلحات العلمية والفنية، بيروت: دار الجيل، ص960 .
7: سورة المائدة، الآية 48 .
8: ابن كثير، (2000م)، تفسير القرآن الكريم، ج3، تحقيق: مصطفي السيد محمد وآخرون، مصر: مؤسسة قرطبة، ص 129.
9: أحمد بن حنبل، (1995م)، المسند، شرحه: أحمد محمد شاكر، حمزة أحمد الزين، القاهرة: دار الحديث، ص 361 .
10: الدار مي، (2000م)، سنن الدار مي، تحقيق: حسين سليم الداراني، الرياض: دار المغني، ص4081 .
11: ابن الأثير، (1399ه)، النهاية في غريب الحديث، ج5، دار الفكر، ص 134.
12: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ص232 .
13: الأصفهاني، (ب.ت)، المفردات في قريب القرآن، بيروت: دار المعرفة، ص 343 .
14: ابن عبد البر، (ب.ت)، جامع بيان العلم وفضله، ج2، بيروت: دار الفكر، ص45 .
15: الجرجاني، (1407ه)، التعريفات، تحقيق: عبد الرحمن عميره، بيروت: عالم الكتب، ص343 .
16: سورة النحل، الآية 78 .
17: سورة الروم، الآية 7 .
18: سورة يونس، الآية 5 .
19: سورة آل عمران، الآية 18 .
20: سورة المجادلة، الآية 11 .
21: صحيح البخاري،كتاب العلم، باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين،ج1، رقم 7، ص42 .
22: صحيح البخاري، كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة، ج1 رقم 73، ص43 .
23: صحيح مسلم ، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من ثواب بعد وفاته، ج5، ص73 .
24: سنن الترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة،ج3، رقم 2682، ص71 .
25: الأشعري، (1995م)، مقالات الإسلاميين، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت: المكتبة العصرية، ص490 .
26: المصدر نفسه، ص 490 .
27: عبد الجبار أحمد الهمداني، (ب.ت)، تثبت دلائل النبوة، ج2، تحقيق: عبد الكريم عثمان، بيروت: الدار العربية للطباعة والنشر ص534 .
28: عبد الجبار بن أحمد الهمداني، (ب.ت)، المجموع في المحيط بالتكليف، تحقيق: الأب يوسف هوين، بيروت: دار المشرق، ص409
29: عبد الجبار بن أحمد الهمداني، (ب.ت)، المعني في أبواب التوحيد والعدل، ج12، تحقيق: إبراهيم مدكور، القاهرة: المؤسسة المصرية للتأليف والنشر ، ص386

30:محمد عبد العظيم الزر قاني، (ب.ت)، مناهل الفرقان في علوم القرآن، مصر: مطبعة عيسي الحلبي، ص23 .
31: جلال الدين السيوطي، (ب.ت)، أعجاز القرآن، تحقيق: علي البجاوي، بيروت: دار الفكر، ص17-20 .
32: الزركشي، (ب.ت)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل، القاهرة: دار التراث، ص175 .
33: محمد ياسين عريبي، (1989م)، تأسيس العلوم عند العرب، طرابلس: مطابع الوحدة العربية، ص162 .
34: سورة البلد، الآية 10 .
35: صبحي الصالح، (1983م)، مباحث في علوم القرآن، بيروت: دار العلم للملايين، ص294 .
36: محمد ياسين عريبي، تأسيس العلوم والمناهج عند العرب، ص162 .
37: الحارث المحاسبي، (1982م)، العقل وفهم القرآن، تحقيق: حسين القوتلي، بيروت: دار الكندي، ص202 .
38: الغزالي، (1988م)، جواهر القرآن ودرره، ط2، بيروت: دار الأفاق، ص38و39 .
39: المصدر نفسه، ص 52 .
40: صبحي الصالح، (1999م)، علوم الحديث ومصطلحه، ط22، لبنان: دار العلم للملايين، ص107 .
41: صبحي الصالح، المرجع نفسه ، 107 .
42: المرجع نفسه، ص 107 .
43: المرجع نفسه، ص 109 .
44: المرجع نفسه، ص 113
45: المرجع نفسه، والصفحة نفسها.
46: ابن الصلاح،(1989م)، مقدمة علوم الحديث، تحقيق:عائشة عبد الرحمن، القاهرة: دار المعارف، ص290 .
47: المرجع نفسه، ص288 .
48: أبوحاتم الرازي، الجرح والتعديل، بيروت، دار الكتب العلمية، ص37 .
49: محمد جمال الدين القاسمي ، قواعد التحديث، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ص80 .
50: عبد الوهاب خلاف، (1985م)، علم أصول الفقه، الكويت: دار القلم، ص52 .
51: الغزالي، معيار العلم ، ص145 .
52: ابن خلدون، (1989م)، المقدمة، تحقيق: عبد الواحد وافي، بيروت: دار الكتب العلمية، ص 356 .
53: الشافعي، (1939م)، الرسالة، تحقيق: أحمد شاكر، مصر، د.ن، ص477 .